السُّلَّم النزوليّ لألفاظ معارضة الرَّسول في المرحلة القرآنيَّة المكِّيَّة

مقولات في اللسانيَّات الدلاليَّة الحضاريَّة

أ.م.د. محمَّد جعفر العارضيّ

أستاذ مساعد بكلِّيَّة الآداب

جامعة القادسيَّة

العراق

البريد الإلكتروني: muhm71666@yahoo.com

الاستلام	٢٠١٨/٢/٢٥	المراجعة	٢٠١٨/٣/٢٣	النشر	٢٠١٨/٤/٣٠

الملخَّص:

تقدِّم النظرة النزوليَّة لآي الخطاب القرآنيّ و سوره نظرًا تفسيريًّا نوعيًّا؛ ذلك بأنَّها تضعنا أمام الحيثيَّات القرآنيَّة التي تعاطت مع مراحل الدعوة الإسلاميَّة على نحو واقعيّ دقيق يعمِّق فحص الأدوات و المعالجات فحصًا قرآنيًّا داخليًّا يتخطَّى الفحص الخارجيّ الذي يحتمل مفارقة الإرادة القرآنيَّة.

و من ذلك ما تقدِّمه النظرة النزوليَّة في إنتاج مقولات تفسيريَّة دقيقة في إنتاج السلَّم النزوليّ الواقعيّ التراتبيّ في التعبير عن الرِّسالة المحمَّدية و ما يكتنفها من مفاهيم تشترك في إنتاج منظومة الفعل الرِّساليّ و ما يعارضه؛ لذلك يأتي الحرص على القراءة النزوليَّة للمفاهيم المرتبطة بوعي الظاهرة الرِّساليَّة من جهة و مواجهتها من جهة ثانية. معنى هذا أنَّنا أمام نظرات منهجيَّة تظهر آثارها في رصد القرآنيَّة المواكبة للحدث المجتمعيّ، و القرآنيَّة المواكبة لتلقي الخطاب القرآنيّ و التعاطي مع النَّبيّ صلَّى الله عليه و آله و سلَّم في بداية الدعوة، فضلًا عن أثرها في مظاهر السِّيرة النبويَّة و تسجيل مواقف المواكبة القرآنيَّة في هذا الميدان و الرصد القرآنيّ لحوادثها؛ فيعمد البحث إلى قراءة مجموعة من المطالب قراءة منهجيَّة تتطلَّع إلى التأسيس النوعيّ ذي الأهداف القرآنيَّة الكلِّيَّة التي تعمل على استلهام قيم المشروع القرآنيّ المجتمعيَّة و الفكريَّة و الدينيَّة. و تظهر في هذا السياق قراءة تحليليَّة ناقدة حرصت على توظيفها منهجيًّا بغية إنتاج مقولات تفسيريَّة كلِّيَّة تؤسِّس لأدوات جديدة مؤثِّرة في الفهم القرآنيّ. و هذا ما دعا إلى ضرورة قراءة هذه المطالب في ضوء النظر التحليليّ الذي يلامس منهج التفسير القرآنيّ؛ بغية إنتاج فهم لهذه المطالب ذي أهداف تنمويَّة كبرى.

تأتي في هذا السياق ضرورة التأسيس لفهم جديد يغادر ما استقرَّت عليه المدوَّنة التفسيريَّة من مظاهر الترتيب المصحفيّ لسور الخطاب القرآنيّ و آيه و العدول عنه إلى الترتيب النزوليّ المستغرق في المظاهر المضمونيَّة التكوينيَّة؛ ذلك بأنَّها تعود على العمليَّة التفسيريَّة بفوائد جمَّة على المستوى المنهجيّ و المستوى المضمونيّ. و الأهمُّ أنَّ الخطاب القرآنيّ بلحاظه النزوليّ سيكون هو نفسه الفاعل التفسيريّ الذي يعمل على أن يحقِّق دلالاته و يكشف عن أسراره.

يحرص البحث حرصًا بيِّنًا على قراءة مفاهيم المعارضة لهذه الدعوة المحمَّديَّة، و ما يعمل عليه الفكر الضال في ساحة المواجهة، و ما آلت إليه هذه المواجهة في ضوء النظر النزوليّ الذي يتحوَّل بها إلى مواجهة انهزاميَّة؛ ذلك بأنَّ الذهنيَّة الضالَّة المواجهة صاغت منظومة المعارضة للتشكُّل في ضوء من: مَجْنون، سَاحِر، كَذَّاب، شَاعِر، مُعَلَّم، كَاهِن. مع توظيف لفقدان الولد. معنى هذا أنَّ مقولات المعارضة في المرحلة المكِّيَّة تتشكَّل في محطَّات عقليَّة، مهاريَّة، اجتماعيَّة، نفسيَّة، سلوكيَّة، دينيَّة؛ بغية زعزعة العلاقة الرِّساليَّة بالله تعالى و الطعن فيها.

الكلمات المفتاحيَّة:

الترتيب النزوليّ؛ التأسيس المنهجيّ؛ التفسير التنمويّ؛ المواكبة التكوينيَّة؛ السِّيرة النبويَّة؛ مفاهيم المعارضة؛ النزعة العقليَّة؛ الملامح الاجتماعيَّة؛ المظاهر المهاريَّة؛ الاتجاهات الدينيَّة؛ المواجهة الانهزاميَّة.

The downward pronunciation for opponents of the Apostle

In the Quranic Makkiyya period

Dr. Mohammed Jaafar Al Ardhi

Associate Professor, Faculty of Art

University of Qadisiyah

Iraq

Email: muhm71666@yahoo.com

Received	25/2/2018	Revised	23/3/2018	Published	30/4/2018

Abstract:

The inferior view of the Qur'anic discourse and its context is given a qualitative explanation because it puts us in front of the Qur'anic verses that have dealt with the stages of the Islamic call in a real and precise manner. The examination of the tools and treatments deepens an internal Koranic examination that goes beyond the external examination which is likely to contradict the Qur'anic will.

This is the result of the downstream view of the production of accurate interpretive statements in the production of the realist hierarchy in the expression of the Muhammadic message and the concepts that share the production of the system of the apostolic act and what it opposes. This is why careful reading of the concepts related to awareness of the apostolic phenomenon One hand and facing it on the other. The meaning of this is that we are faced with systematic observations that show their effects in monitoring the Quranic follow-up to the community event, and Quranic follow-up to receive the Koranic discourse and dealing with the Prophet peace be upon him and peace and blessings at the beginning of the call, As well as its impact on the manifestations of the Prophet's biography and recording the positions of Quranic follow-up in this field and the Koranic monitoring of the incidents; the research is to read a set of words in order to produce a developmental understanding.

The research aims at following up the concepts of the opposition in the atmosphere of the Muhammadiyah message. A downward reading of the system of this formation and analysis of its problems and social and ideological, and show the effects of intellectual and advocacy; come to read the concepts of opposition in the light of what works lost thought in the arena of confrontation, In the light of the downward consideration that turns it into a defeatist confrontation.

Keywords:

Lower order; Methodological establishment; Developmentary interpretation; Formative follow-up; Biography of the Prophet; Concepts of opposition; Confrontation confrontation.

المقدِّمة:

أقرأ في نسق هذا البحث مجموعة من المطالب التحليليَّة التي بدا أنَّها بواعث مركزيَّة مؤثِّرة تأثيرًا كبيرًا في إنتاج فهم شامل للخطاب القرآنيّ؛ ذلك بأنَّني كرَّست العمل على جعل هذه البواعث مسارًا منهجيًّا لازمًا لقراءة الخطاب القرآنيّ على نحو من النظر الكلِّيّ، و هذه علامة منهجة هذه المطالب و صوغها صوغًا أدواتيًّا فاعلًا في طريق قراءة الخطاب القرآنيّ. و في سياق عرض هذه المطالب النخبويَّة رأيت أن أعمل على تشكيلها تشكُّلًا منهجيًّا كلِّيًّا يضمن تحقيق متابعة واعية لمفاصل النظر التفسيريّ التنمويّ الذي يضع الإنسان و المجتمع أداة و هدفًا.

كانت المطالب التي أجريت عليها هذا الفحص المنهجيّ الكلِّي المؤسِّس لوعي المشروع القرآنيّ الإنسانيّ أو التكوينيّ تتمثَّل في محور نظريّ عام يتكلَّم على الترتيب القرآنيّ بلحاظيه المصحفيّ و النزوليّ، و يدفع نحو تكريس الترتيب النزوليّ بوصفه أداة تحليليَّة و منهجًا للفهم جديدًا. لقد كان هذا المحور يشتغل على الحوار بين ثنائيَّة الترتيب المصحفيّ لسور الخطاب القرآنيّ و الترتيب النزوليّ لهذه السور، و ما آل إليه هذا الحوار من تغليب - خارج هذه الدراسة – للترتيب المصحفيّ بملامحه المستغرقة في الشكليَّة على الترتيب النزوليّ ذي الملامح المضمونيَّة التكوينيَّة الكبرى.

و تتمثَّل في محور تطبيقيّ كان في مجموعة مراحل قرأت مفاهيم معارضة الرَّسول صلَّى الله عليه و آله و سلَّم في ضوء تأسيسها المنهجيّ و إمكان تمحور آليات الفهم الكلِّيّ حولها، و اتِّخاذها كلمات مفتاحيَّة للنفاذ من خلالها إلى هذا الفهم؛ إذ تبيَّنت خاصَّة الدلالة وراء استعمال: مَجْنون، أَبْتَر؛ سَاحِر، كَذَّاب، شَاعِر، مُعَلَّم، كَاهِن. و ما آل إليه هذا الاستعمال في ضوء النظر النزوليّ من دحض لمقولات المشركين و مواقفهم المواجهة للدعوة المحمَّديَّة؛ وصولًا إلى تسجيل الحالة الانهزاميَّة و رصدها في هذا السياق. و هذه الانهزاميَّة ما كان لها أن تتجلَّى لولا اعتماد النظر النزوليّ لهذه الاستعمالات.

الأوَّل– الترتيب المصحفيّ و السلَّم النزوليّ:

على الرغم من أنَّ مسألة الترتيب النزوليّ لسور القرآن الكريم قيل فيها إنَّها مسألة ليست ذات طائل، و تفتقر إلى الدقَّة، و قد لا تبدو مهمَّة، و منضبطة[١]. غير أنَّ مقاربتها لا تخلو من فائدة، و هي ليست ممنوعة؛ ذلك بأنَّها تعود على العمليَّة التفسيريَّة بفوائد جمَّة على المستوى المنهجيّ و المستوى المضمونيّ، و لا سيَّما آثارها في رصد القرآنيَّة المواكبة للحدث المجتمعيّ، و القرآنيَّة المواكبة لبناء الذات الإنسانيَّة و تسجيل محطَّات تدرُّجها الكماليّ و التنمويّ، فضلًا عن أثرها في مظاهر السِّيرة النبويَّة و تسجيل مواقف المواكبة القرآنيَّة في هذا الميدان و الرصد القرآنيّ لحوادثها.

و يمكن أن نقف وقفة فاحصة بإزاء مقولات الترتيب النزوليّ؛ لإنتاج مواقف نظريَّة و إجرائيَّة مهمَّة. و هذه الوقفة ينبغي أن تكون موازنة بين الترتيب المصحفيّ و الترتيب النزوليّ ؛ وصولًا إلى نظرات نقديَّة تفسيريَّة .

أ - معايير الترتيب المصحفيّ:

ما يمكن أن ينظر إلى تقريره على نحو من اليقين كبير أنَّ الترتيب المصحفيّ لسور الخطاب القرآنيّ هو ترتيب تعارفت عليه الأمَّة في وقت من الأوقات[٢]، و اتَّخذ هذا الترتيب طابعًا رسميًّا جمعيًّا.

ومعايير الترتيب المصحفيّ هي:[٣]

١- معيار الطول و القصر:

ما يلاحظ من النظر في الترتيب المصحفيّ للسور القرآنيَّة أنَّه اعتمد – نوعًا ما - معيار التدرُّج من السور الطوال إلى السور القصار. بمعنى أنَّ هذا الترتيب بلحاظ حجوم السور القرآنيَّة المباركة يظهر أنَّه المنحى المهيمن. مع لحاظ وجود استثناءات ما تكتنف هذا المنحى.

و في هذا السياق يلاحظ أنَّ سورة الفاتحة المباركة قد خرجت على هذا الترتيب الكمِّيّ الطوليّ؛ ذلك بأنَّ حالة مخصوصة قد دعت إلى أن تكون هذه السورة المباركة مطلعًا للخطاب القرآنيّ المصحفيّ لاعتبارات ذات صبغة مضمونيَّة مقاميَّة. مع لحاظ عدم اقتصار استثناءات الترتيب الكمِّيّ المصحفيّ على سورة الفاتحة المباركة؛ إذ إنَّ هنالك سورًا قد أخذت مكانًا في الجسد المصحفيّ مع عدم انسجامها الكمِّي في ضوء ما قبلها و ما بعدها. معنى هذا أنَّه ينبغي أن نعي و على نحو دقيق أنَّ استثناءات ترتيبيَّة خرقت معيار الطول و القصر. على أنَّه تذكر جملة من مصاديق التصنيفات للسور القرآنيَّة في ضوء الطول و القصر:

أ- السور الطوال: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأعراف، الأنعام، الأنفال، التوبة.

ب- السور المئين: و هذه تلي السور الطوال طولًا. و لها من الآيات ما يربو المئة: يونس، هود، يوسف، النحل، الإسراء، الكهف، طه، الأنبياء، المؤمنون، الشعراء، السجدة.

ج- السور المثاني: النمل، القصص، العنكبوت، الروم، لقمان، الأحزاب، سبأ، فاطر، يس، الصَّافَّات، ص، الزمر، غافر، فُصِّلت، الشورى، الزُّخرُف، الدُّخان، الجاثية، الأحقاف، محمَّد، الفتح، الحُجُرات. و معنى المثاني أنَّها قد تكرَّرت القصص فيها.

د- السور المفصَّل: ق، الذَّاريات، الطُّور، النَّجم، القمر، الرَّحمن، الواقعة، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الصَّف، الجمعة، المنافقون، التغابن، الطَّلاق، التَّحريم، المُلك ، القلم، الحاقَّة، المعارج، نُوح، الجنّ، المزَّمِّل، المدَّثِّر، القيامة، الإنسان، المرسلات، النَّبأ، النازعات، عبس، التكوير، الانفطار، المطفِّفين، الانشقاق، البُروج، الطَّارق، الأعلى، الغاشية ، الفجر، البلد، الشَّمس، الليل، الضُّحى، الشرح، التِّين، العلق، القدر، البيِّنة، الزَّلْزَلَة، العاديات، القارعة، التكاثر، العصر، الهُمَزَة، الفيل، قُريش، الماعُون، الكوثر، الكافرون، النَّصر، المَسَد، الإخلاص، الفَلَق، النَّاس. و سمِّيت بهذا الاسم لقصرها، و لكثرة فواصلها.

٢- معيار المكِّيّ و المدنيّ:

و هو معيار يعتمد التوزيع المكانيّ للسور القرآنيَّة المباركة. غير أنَّ الأظهر فيه النظر إلى ما نزل قبل الهجرة فهو مكِّي و إن نزل بغير مكَّة. أمَّا ما نزل بعد الهجرة فهو مدنيّ و إن نزل بغير المدينة[٤]. معنى هذا أنَّه معيار يراعي الترتيب الزمانيّ في حقيقة الأمر غير أنَّ الاسم الجامع فيه اسم مكانيّ.

و لم يسلم هذا الضابط من الاختلاف؛ فلقد اختلفوا في ثلاثين سورة من سور القرآن الكريم بين المكِّية و المدنيَّة هي:[٥]

الفاتحة، النساء، يونس، الرَّعد، الحج، الفرقان، يس، ص، محمَّد، الحُجُرات، الرحمن، الحديد، الصَّف، الجمعة، التغابن، المُلك، الإنسان، المطفِّفين، الفجر، البلد، الليل، القدر، الزلزلة، العاديات، التكاثر، الماعون، الكوثر، الإخلاص، الفلق، النَّاس.

و الملاحظ أنَّ الاختلاف هنا قد جعل هذا المعيار ليس دقيقًا، على الرغم من أنَّه معيار يراعي النزول بنسبة ما و لا يحتكم إلى الشكل مطلقًا.

و في معرض مناقشة هذه المعايير التي اعتمدت في الترتيب المصحفيّ يظهر أنَّها معايير تنظيميَّة شكليَّة تعتمد النظر الخارجي للسور القرآنيَّة المباركة. و قد تبدو معايير موغلة في الشكليَّة. و إيغالها الشكليّ يمثِّل بحدِّ ذاته مشكلة كبرى؛ ذلك بأنَّها لا تشترك على نحو مؤثِّر في العمل التفسيريّ المضمونيّ. معنى هذا أنَّ الترتيب المصحفيّ ذا المعايير الشكليَّة لا يلامس كثيرًا الأدوات الدلاليَّة التحليليَّة للعمليَّة التفسيريَّة ما خلا تنظيم التفسير و خلق متواليات تفسيريَّة نظاميَّة قائمة على حدود السور القرآنيَّة المباركة بداية و نهاية؛ ما يوفِّر فرصة دلاليَّة كلِّيَّة ما.

و يظهر أنَّ الترتيب المصحفيّ قد قسَّم الجسد اللسانيّ للخطاب القرآنيّ، حتَّى كأنَّه قد وضع العوائق أمام النظام القرآنيّ التسلسليّ؛ ما دعا غير واحد من المفسِّرين و المشتغلين بعلوم القرآن إلى أن يجتهدوا و يجهدوا أنفسهم في إيجاد المناسبات الرابطة بين السور القرآنيَّة المصحفيَّة المباركة. و في هذا مسألتان: الأولى أنَّ إحساسًا كبيرًا من هؤلاء أنَّ إيجاد مثل هذه المناسبات الرابطة و الوصلات الدلاليَّة و المضمونيَّة يمثِّل تعويضًا عن حالة التفكُّك التي أنتجها الترتيب المصحفيّ الشكليّ من جهة، و يمثِّل من جهة ثانية عملًا خادمًا للعمليَّة التفسيريَّة التي يتوخَّى أثرها التكوينيّ و الوجوديّ بمعونة الترتيب التسلسليّ النزوليّ. و الثانية أنَّ إحساسًا كبيرًا منهم أيضًا بأنَّ الترتيب التسلسليّ النزوليّ يحفظ على نحو أكيد التماسك المضمونيّ بين السور القرآنيَّة المباركة.

ب - معايير الترتيب النزوليّ:

يمكن النظر في سلَّم الترتيب النزوليّ لسور الخطاب القرآنيّ باعتماد الإشارة إلى منطلقات هذا الترتيب و معاييره و أسسه الإجرائيَّة التي تتمثَّل في تصوّرات عن أوائل ما نزل و أواخر ما نزل من سور قرآنيَّة مباركة من جهة، و تصوّرات عن النازل بمكَّة و بالمدينة من هذه السور من جهة ثانية، و تصوّرات عن السور القرآنيَّة و وقائع السِّيرة النبويَّة، و مراحل الدعوة بلحاظها السريّ و العلنيّ من جهة ثالثة، و مظاهر المواجهة و بداية الصراع مع قريش، و التعرُّض لأصنامهم من جهة رابعة[٦]. مع لحاظ عدم سلامة هذه المعايير و المنطلقات من الاختلاف[٧].

و لعلَّ الترتيب القرآنيّ النزوليّ هو:[٨]

العلق ، القلم ، المزَّمِّل ، المدَّثِّر ، الفاتحة ، المسد ، التكوير ، الأعلى ، الليل ، الفجر ، الضحى ، الشرح ، العصر ، العاديات ، الكوثر ، التكاثر ، الماعون ، الكافرون ، الفيل ، الفلق ، الناس ، الإخلاص ، النجم ، عبس ، القدر ، الشمس ، البروج ، التين ، قريش ، القارعة ، القيامة ، الهُمَزة ، المرسلات ، ق ، البلد ، الطارق ، القمر ، ص ، الأعراف ، الجن ، يس ، الفرقان ، فاطر ، مريم ، طه ، الواقعة ، الشعراء ، النمل ، القصص ، الإسراء ، يونس ، هود ، يوسف ، الحجر ، الأنعام ، الصافَّات ، لقمان ، سبأ ، الزمر ، غافر ، فُصِّلت ، الشورى ، الزخرُف ، الدخان ، الجاثية ، الأحقاف ، الذاريات ، الغاشية ، الكهف ، النحل ، نوح ، إبراهيم ، الأنبياء ، المؤمنون ، السجدة ، الطُّور ، الملك ، الحاقَّة ، المعارج ، النبأ ، النازعات ، الانفطار ، الانشقاق ، الروم ، العنكبوت ، المطففين ، البقرة (أوَّل ما نزل بالمدينة) ، الأنفال ، آل عمران ، الأحزاب ، الممتحنة ، النساء ، الزلزلة ، الحديد ، محمَّد ، الرعد ، الرحمن ، الإنسان ، الطلاق ، البيِّنة ، الحشر ، النور ، الحج ، المنافقون ، المجادلة ، الحجرات ، التحريم ، التغابن ، الصف ، الجمعة ، الفتح ، المائدة ، التوبة ، النصر.

و يأتي ترتيب المستشرقين للسور القرآنيَّة كواحد من صور الترتيب النزوليّ الذي علَّقوا عليه أهمِّيَّة كبرى[٩]. و هو يقوم عندهم على إنتاج قراءة موضوعيَّة لمراحل الوحي، و تصاعد الخطاب القرآنيّ، و استشعار الجانب الروحيّ للسِّيرة النبويَّة[١٠]. على أنَّهم انتهجوا في عملهم هذا نهجًا مخصوصًا أبعدهم عن ضابط الرواية التي تعدُّ معينًا مهمًّا

في هذا الباب[١١]. و كان ترتيبهم تفصيليًّا يعتمد تقسيم الآيات في السورة الواحدة على نحو زمنيّ[١٢]؛ لهذا يتكرَّر لديهم موضع السورة الواحدة بلحاظ أقسامها النزوليَّة.

و السلَّم النزوليّ لسور الخطاب القرآنيّ هو الترتيب الذي يطابقه الوصف بأنَّه ترتيب قرآنيّ؛ ذلك بأنَّه ترتيب يتوخَّى إنتاج تصوّر منطقيّ عن المسار التكوينيّ للنص القرآنيّ بلحاظ نزوله، فضلًا عن تقديم بيان قريب يراقب وقائع السِّيرة النبويَّة، و بما يحقِّق علاقة حميميَّة بين الخطاب القرآنيّ و النبيّ صلَّى الله عليه و آله و سلَّم[١٣]؛ وصولًا إلى أنَّ ذلك يقود إلى أن ((يندمج القارئ في جو نزول القرآن و جو ظروفه و مناسباته))[١٤]؛ لذلك يمكن التعويض عن عدم اعتماد هذا السلَّم في تسلسل السور القرآنيَّة المباركة باعتماد قراءة التفسير في ضوء التسلسل النزوليّ؛ ذلك بأنَّ هذه القراءة تضعنا في أجواء الحدث القرآنيّ التصاعديّ الراعي للبناء الإنسانيّ، و الكاشف عن عظيم الجهد الذي بذله النَّبيّ صلَّى الله عليه و آله و سلَّم في إحداث التغيير و إنتاج الإصلاح في ظلِّ الهديّ القرآنيّ المتسلسل. و الكاشف قبل ذلك أيضًا عن الروح الكبرى و عظيم الاستعداد المحمَّديّ لإحداث هذا التغيير، و تحمُّل أعبائه.

و من الباحثين من أجده متحفِّظًا في الدعوة للتفسير في ضوء الترتيب النزوليّ خشية أن ((يوحي للبعض أنَّ آياته خاصَّة بتلك الوقائع و الحوادث التي وقعت في زمنه صلَّى الله عليه و آله و سلَّم ثم زالت، فضلًا عن كونه مخالفًا لما أُجمع عليه، و القرآن الكريم كتاب الله الخالد للبشريَّة جميعًا لا يختص بعص من العصور دون عصر))[١٥]. و هذا التحفُّظ لا يصمد أمام فوائد الترتيب النزوليّ، و لا سيما ما يتعلَّق منها بمسألة ((تدبُّر النصوص التربويَّة و الحركيَّة في طريق الإصلاح و أساليب الدعوة و ألوان الجهاد التي تكشف عن التدرُّج في الخطوات التربويَّة، و التكرير في استعمال العلاج التربويّ بغية تأثيره و الحصول على الفائدة منه))[١٦]. فضلًا عن أنَّ التفسير النزوليّ يوفِّر ((حماية للمفسِّر و المتدبِّر من أخطاء تفسيريَّة))[١٧]، إذ يحقِّق ذلك ((اجتنابًا للمعنى البعيد و طلبًا للصواب في فهم النصِّ القرآنيّ))[١٨].

و من الضرورة بمكان أن يذكر في هذا السياق المنجز التفسيريّ النزوليّ الرائد في العصر الحديث من قبيل "بيان المعاني" للشيخ عبد القادر الملَّا حويش، و "التفسير الحديث" للشيخ محمَّد عزَّة دروزة، و "معارج التفكُّر و دقائق التدبُّر" للشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، و "فهم القرآن الحكيم" للدكتور محمَّد عابد الجابريّ.

الثاني– الترتيب النزوليّ لألفاظ المعارضة في المرحلة المكِّيَّة:

إنَّ من المسائل المهمَّة التي يمكن أن تناقش في ضوء اعتماد سلَّم النزول القرآنيّ مسألة الألفاظ التي صاغت مفهوم المعارضة للرسالة المحمَّديَّة و تشكُّلها في الذهنيَّة الضالَّة المواجهة على نحو عقليّ، دينيّ، سلوكيّ، اجتماعيّ يستصحب التشكيك و الطعن و مواجهة العقيدة و تهوين التواصل الرِّساليّ السماويّ. و السلَّم النزوليّ لهذه المعارضة يتمثَّل في مجموعة مراحل[١٩] تفصيليَّة:

١- في مرحلة النبوَّة و الربوبيَّة:

جاء في هذه المرحلة استعمالان هما: مَجْنون، أَبْتَر.

يقول تعالى: { وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ } (القلم: ٥١). و يقول تعالى: { إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} (الكوثر: ٣).

المَجْنون: من حال بينه و بين عقله حائل[٢٠] فأفسده[٢١]. مع لحاظ ارتباطه بصور ((الاضطراب العقليّ و النفسيّ))[٢٢].

و الأَبْتَر: الذَّليل[٢٣]، مقطوع النسل و الخير[٢٤]. مع الدلالة على انقطاع الذِّكر بسبب من فقدانه النسل[٢٥]. و لا شكَّ في أنَّه غير رسول الله صلَّى الله عليه و آله و سلَّم؛ ذلك بأنَّ ((جميع المؤمنين أولاده))[٢٦]. فضلًا عن أنَّ آثار فضله صلَّى الله عليه و آله و سلَّم و محاسن صيته باقية[٢٧] إلى آخر الدهر[٢٨].

الظاهر أنَّنا أمام بيان في آية القلم المباركة ((لغاية حيرتهم في أمره عليه الصلاة و السلام و نهاية جهلهم بما في تضاعيف القرآن من تعاجيب الحِكم و بدائع العلوم المحجوبة عن العقول المنغمسة بأحكام الطبائع))[٢٩]؛ فمارسوا سبل العداوة المفرطة التي أخذتهم إلى التخطيط لقتله صلَّى الله عليه و آله و سلَّم، و ذلك ممَّا يوحي به استعمال { لَيُزْلِقُونَكَ}[٣٠]، فما كان إلَّا ((إنَّ النصَّ يستهدف عرض سلوك المنحرفين الذين ناهضوا رسالة الإسلام و استخدموا شتَّى الأساليب في ذلك))[٣١].

معنى هذا أنَّ المعارضة في مرحلة إظهار النبوّة و الربوبيَّة كانت أوَّلًا بلحاظ عقليّ، و من ثمَّ كانت بلحاظ اجتماعيّ. أي أنَّ جبهة المعارضة هنا قدَّمت النَّبيّ صلَّى الله عليه و آله و سلَّم على أنَّه مَجْنون، أَبْتَر. و لا يخفى ما لهذين الاستعمالين من توافق مع طبيعة المرحلة و أدواتها التأييديَّة. بمعنى أنَّ الوصف بالجنون يهدِّد المشروع تمامًا؛ ذلك بأنَّ صاحبه متَّهم في عقله. و هنا يأتي الخطاب الإلهيّ لينفي ذلك عن ساحة الرَّسول صلَّى الله عليه و آله و سلَّم. يقول تعالى: { وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ } (التكوير: ٢٢). و في الجنون إشارة إلى ما يفوق المقدرة الإنسانيَّة فتأتي الإشارة إلى تقويض أثر هذا الطعن و التحوّل به إلى دليل نبوّة.

و إذ تنتقل المعارضة إلى محطَّة اجتماعيَّة تتمثَّل في نفي وجود الولد فإنَّ ذلك يشير إلى أنَّ المعارضين يغمزون بمثل هذا التوظيف إلى أنَّ نبيًّا لا يعمل إلهه على حفظ أولاده هو نبيّ يدَّعي و حسب. و ما يلاحظ أنَّ نسق سورة الكوثر المباركة نسق إثبات امتداد نسل للنَّبيّ صلَّى الله عليه و آله و سلَّم إن على نحو مادِّي و إن على نحو معنويّ فكريّ؛ ذلك بأنَّ " الكَوثَر" بشرى بذلك لا ترتبط بوقت أو مكان؛ فيأتي الخلود النسليّ بلحاظه المعنويّ المتمثِّل في سيادة الإسلام آخر الزمان، فضلًا عن إطباق شهرته عليه السلام و مكانته العليا على المستوى الإنسانيّ. و يظلُّ الخلود النسليّ المادِّيّ منظورًا في هذا السياق من طريق كوثره عليها السلام. على أنَّ نسلًا مادِّيًّا له صلَّى الله عليه و آله و سلَّم سيكون رساليًّا نوعيًّا مختلفًا تتجلَّى فيه مظاهر الريادة و القيادة و الكمال الإنسانيّ، و آية ذلك أنَّه كوثر لا يسعه مكان أو زمان.

٢- في مرحلة إبطال الشرك و تسفيه عبادة الأصنام:

تأتي في هذه المرحلة إضافة استعمال جديد هو: سَاحِر، فضلًا عن استمرار استعمال: كَذَّاب.

يقول تعالى: { وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ } (ص: ٤).

و السِّحر: نشاط مرتبط بعالم الأرواح[٣٢]. يعتمد ما لطف مأخذه و دقَّ فيصرف قلوب السامعين[٣٣] و حواسَّهم[٣٤]. و هو يقوم على الإخفاء[٣٥] و الخداع و التمويه[٣٦] أيضًا.

و الانتقال إلى الساحر في هذا السياق كان إشارة إلى ((ما يظهره من الخوارق))[٣٧]. و جاء هذا الاستعمال للحدِّ من فعل النَّبيّ صلَّى الله عليه و آله و سلَّم في إبطال عبادة القوم و تسفيه أحلامهم التي قادتهم إلى الاعتقاد بالأصنام. و في هذا الاستعمال شهادة كبرى تؤكِّد أنَّه قد فعل فعلًا مؤثِّرًا مقنعًا أنتج أتباعًا ساخطين على قومهم الذين أضلُّوهم و دفعوهم إلى عبادة الأصنام فيما مضى؛ فتأتي الدلالة على بداية الانهزام. و من جهة أخرى أنَّ ((هذا الكلام الذي نطق به المنحرفون يكشف أوَّلًا عن مدى عقم هزال الذهن الذي يصدر عنه المنحرفون، مثلما يكشف عن سمتي التكبُّر و العناد ... فاتهامهم صاحب الرِّسالة بالسحر و الكذب، يكشف عن عداونيَّتهم ... ، و تساؤلهم متعجِّبين: كيف تجعل الآلهة إلهًا واحدًا، يكشف عن هزالهم ذهنيًّا))[٣٨].

٣- في مرحلة الصَّدع بالأمر و الاتصال بالقبائل:

تعود جبهة المعارضة الضالَّة إلى: مَجْنون، و تنتقل أيضًا إلى: شَاعِر التي تعزِّزها باستعمال: مَجْنون أيضًا.

يقول تعالى: { وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ } (الحِجر: ٦).

و يقول تعالى: { وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ } (الصَّافَّات: ٣٦).

عندما نصل نزوليًّا إلى: شَاعِر يبدأ تآكل الأوصاف السابقة و ضرب دلالاتها؛ إذ إنَّ إنسانًا سَاحِرًا شاعرًا لا شكَّ في أنَّه على وعيّ عقليّ؛ فيكون استعمال: سَاحِر و شَاعِر تهديمًا لما كانت عليه المعارضة من استعمالات. معنى هذا أنَّه يأتي ضرب هذه الطعون من الداخل؛ فتبدأ الانهزاميَّة.

إنَّ مَجْنونًا، أَبْتَر، كَذَّبًا، سَاحِرًا ليست كافية في هذه المرحلة فانتقلوا إلى معارضة بوصف مهاريّ ذي خصائص خياليَّة تصويريَّة يتمثَّل في: شَاعِر؛ ذلك بأنَّ في هذا الوصف تهوينًا للرساليَّة الإلهيَّة، و جعلًا للخطاب خطابًا بشريًّا. مع إشارة إلى ما يكتنفه: شَاعِر من اعتقاد بوجود شيطان يلهم الشاعر شعرًا عجبًا، و لا سيما أنَّنا في نسق الاتصال بالقبائل و دعوتها إلى هذه الرسالة الجديدة.

٤- في مرحلة حصار النَّبيّ و الهجرة إلى الحبشة:

في هذه المرحلة التي هي مرحلة التضييق و الحصار ترفع المعارضة لافتة الاتهام بأنَّ هذا النَّبيّ صلوات الله و سلامه عليه و على آله: مُعَلَّم، فضلًا عن أنَّه: مَجْنون.

يقول تعالى: { ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ } (الدُّخان: ١٤). و معناه أنَّهم ((قالوا تارة يعلِّمه غلام أعجميّ لبعض ثقيف و أخرى مجنون))[٣٩]. و على الرغم من أنَّهم يريدون معلِّمًا بشريًّا؛ فيسلبون النبيّ مقامه الرساليّ الإلهيّ، غير أنَّ استعمالهم هذا يتعارض مع استعمالهم الجنون طعنًا به صلَّى الله عليه و آله و سلَّم؛ ذلك بأنَّ الوصف يثبت له المقدرة على التعلُّم؛ ما يعني أنَّه ليس بمجنون؛ فيكشف السلَّم النزوليّ خور تفكيرهم، و تناقض طعونهم و أوصافهم التي يصفونه بها صلَّى الله عليه و آله و سلَّم.

٥- في مرحلة ما بعد الحصار و الاستعداد للهجرة إلى المدينة:

يأتي الطعن باستعمال: شَاعِر، كَاهِن. و الجديد هنا أنَّ النَّبيّ صلَّى الله عليه و آله و سلَّم في نظرهم: كَاهِن.

يقول تعالى: { بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ } (الأنبياء: ٥).

و يقول تعالى: { وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ } (الحاقَّة: ٤٢).

و الكِهانة: أن يعتمد الظنُّ في الإخبار بما كان من أخبار ماضية[٤٠] على نحو النبوءة[٤١]. فضلًا عن اعتماد الغيب في التفكير في قضايا الحياة و شؤونها[٤٢]، و أسرارها في مستقبل الزمان[٤٣].

و الملاحظ هنا أنَّ مَجْنونًا، أَبْتَر، كَذَّبًا، سَاحِرًا، شَاعِرًا ما عادت – في نسق تفكيرهم الضال - نافعة في الحدِّ من نفوذه و رواج دعوته فانتقلوا إلى معارضة ذات صبغة دينيَّة تأثيريَّة تتمثَّل في: كَاهِن؛ ظنًّا منهم أنَّ هذا الوصف يمهِّد إلى معارضة دينيَّة تتجلَّى في بيئة المدينة التي يروم صلَّى الله عليه و آله و سلَّم أن يتَّخذها دارًا لهجرته و تشييد دولته.

و ممَّا لا يخفى أنَّ استعمال: كَاهِن ذات المقاميَّة الدينيَّة العليا تنفي أن يكون صاحبها كَذَّابًا، سَاحِرًا، شَاعِرًا، فضلًا عن أن يكون مَجْنونًا من جهة، و أنَّ استعمال هذا الوصف يكرِّس المكانة الدينيَّة للموصوف به من جهة ثانية؛ فتتحوَّل المعارضة باستعماله إلى تأييد غير شعوريّ، و انهزام ملحوظ لا يقوى على الصمود أمام الرِّساليَّة الإلهيَّة.

الظاهر أنَّ المعارضة بلحاظ الموضوع و نسق الاستعمال النزوليّ ذي المواقف التداوليَّة المؤسِّسة لمقولات دلاليَّة تخرج بالنظر اللسانيّ إلى نسق حضاريّ فكريّ يكشف عن طبيعة المجتمع في حينه، و تظهر على نحو جليّ أدواته في إنتاج خطاب مقاوم، و إن كان هذا الخطاب المقاوم ضالًّا مضلًّا فهذا الخطاب تتوزَّع مهيمناته بلحاظ عقليّ: مَجْنون.

و بلحاظ اجتماعيّ: أَبْتَر. و بلحاظ سلوكيّ: كَذَّاب. و بلحاظ مهاريّ خداعيّ خياليّ: سَاحِر، شَاعِر. و بلحاظ علميّ: مُعَلَّم. و بلحاظ دينيّ: كَاهِن.

و الخطاب القرآنيّ قد نفى هذه الطعون جميعًا و برَّأ ساحة النَّبيَّ صلَّى الله عليه و آله و سلَّم منها. غير أنَّ البحث يلفت الانتباه إلى أنَّ تلك الطعون يأتي نفيها متلبِّسًا بها فضلًا عن نفيها نفيًا مباشرًا، و هذا التلبُّس النافي يكون بلحاظ تراتبيَّة النظر النزوليّ لهذه الاستعمالات؛ ليكرِّس أهميَّة النظر التفسيريّ النزوليّ و فوائده الدلاليَّة التي ينبغي أن تظلَّ تتنامى؛ وصولًا إلى ضرورة تكريس هذا الفن التفسيريّ و الاشتغال في ضوئه رغبة في إنتاج مقولات دلاليَّة تلامس الخاصَّة الدلاليَّة لهذا الاستعمال أو ذاك؛ فتظهر الفرادة ، و تأتي مظاهر الإعجاز على نحو كلِّيّ يكون الخطاب القرآنيّ نفسه فاعلًا تفسيريًّا في بيان دلالاته.

هوامش البحث و مصادره و مراجعه:

[١] ينظر. منَّة المنَّان في الدفاع عن القرآن ، محمَّد محمَّد صادق الصدر ، ط ١ ، دار البصائر للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ٢٠١٢ ، ص ١ / ٤٥ – ٤٦ .

[٢] ينظر. مدخل إلى القرآن الكريم - الجزء الأوَّل في التعريف بالقرآن ، د. محمَّد عابد الجابريّ ، ط ١ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ٢٠٠٦ ، ص ٢٣٣ .

[٣] ينظر. مدخل إلى القرآن الكريم - الجزء الأوَّل في التعريف بالقرآن ، ص ٢٣٣ – ٢٣٩ .

[٤] ينظر. تاريخ القرآن ، د. محمَّد حسين علي الصغير ، ط ١ ، دار المؤرِّخ العربي ، لبنان ١٩٩٩ ، ص ٤٧ .

[٥] ينظر. مدخل إلى القرآن الكريم - الجزء الأوَّل في التعريف بالقرآن ، ص ٢٣٥ – ٢٣٧ .

[٦] ينظر. مدخل إلى القرآن الكريم - الجزء الأوَّل في التعريف بالقرآن ، ص ٢٣٩ – ٢٤٠ ، ٢٤٥ – ٢٥٤ .

[٧] ينظر. تاريخ القرآن ، ص ٥٣ ، مدخل إلى القرآن الكريم - الجزء الأوَّل في التعريف بالقرآن ، ص ٢٣٩ – ٢٤٠ .

[٨] ينظر. تاريخ القرآن ، ص ٥٦ – ٦٢ ، مدخل إلى القرآن الكريم - الجزء الأوَّل في التعريف بالقرآن ، ص ٢٤٠ .

[٩] ينظر. تاريخ القرآن ، ص ٤٨ .

[١٠] ينظر. مدخل إلى القرآن الكريم - الجزء الأوَّل في التعريف بالقرآن ، ص ٢٤٠ – ٢٤١ .

[١١] ينظر. تاريخ القرآن ، ص ٤٩ .

[١٢] ترتيب المستشرقين التفصيليّ يذكره الدكتور محمَّد عابد الجابريّ و يناقشه باهتمام بالغ . ينظر. مدخل إلى القرآن الكريم - الجزء الأوَّل في التعريف بالقرآن ، ص ٢٤١ .

[١٣] ينظر. مدخل إلى القرآن الكريم - الجزء الأوَّل في التعريف بالقرآن ، ص٢٤٣ – ٢٤٤ ، فهم القرآن الحكيم – التفسير الواضح حسب ترتيب النزول ، القسم الأوَّل ، ط ٣ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ٢٠١٠ ، ص١٧-١٨ ، ترتيب النزول و أثره في تفسير القرآن الكريم ، د. إحسان طه ياسين ، مجلَّة الأطروحة للعلوم الإنسانيَّة ، العدد الثامن ، دار الأطروحة العلميَّة ، بغداد ٢٠١٧ ، ص ١٥٦ .

[١٤] ترتيب النزول و أثره في تفسير القرآن الكريم ، (بحث) ، ص ١٥٦ .

[١٥] ترتيب النزول و أثره في تفسير القرآن الكريم ، (بحث) ، ص ١٥٤ .

[١٦] ترتيب النزول و أثره في تفسير القرآن الكريم ، (بحث) ، ص ١٥٥ – ١٥٦ .

[١٧] ترتيب النزول و أثره في تفسير القرآن الكريم ، (بحث) ، ص ١٥٦ .

[١٨] ترتيب النزول و أثره في تفسير القرآن الكريم ، (بحث) ، ص ١٥٧ .

[١٩] تعتمد هنا المراحل التي يتبنَّاها الدكتور محمَّد عابد الجابريّ في كتابه "فهم القرآن الحكيم"؛ ذلك بأنَّها مراحل تتلبَّس بالترتيب النزوليّ الذي يعتمد المرحلة و ما يكتنفها من ملامح تفصيليَّة دقيقة. و هذه المراحل تأتي في ضوء ترتيب نزوليّ تفصيليّ يقيم عليه الدكتور الجابريّ نظره التفسيريّ التحليليّ في هذا الكتاب. و يظهر أنَّ هذا التقسيم المرحليّ مرتبط بنظر المستشرقين الذي يذكره الدكتور الجابريّ في كتابه "مدخل إلى القرآن الكريم".

[٢٠] ينظر. مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني ، تحقيق : صفوان عدنان داوودي ، ط ١ ، دار القلم ، دمشق ١٩٩٦ ، (جنن) ، ص ٢٠٥ .

[٢١] ينظر. القاموس المقارن لألفاظ القرآن الكريم ، د. خالد إسماعيل علي ، مكتب سناريا ، بغداد ٢٠٠٤ ، ص ١٠٢ .

[٢٢] التفسير البنائي للقرآن الكريم ، د. محمود البستانيّ ، مجمع البحوث الإسلامية ، إيران ١٤٢٤ ، ج ٥ ، ص ٧٨ .

[٢٣] ينظر. البحر المحيط ، ج ٨ ، ص ٥٢٠ .

[٢٤] ينظر. فهم القرآن الحكيم – التفسير الواضح حسب ترتيب النزول ، القسم الأوَّل ، ص ٦٥ – ٦٦ .

[٢٥] ينظر. مفردات ألفاظ القرآن ، (بتر) ، ص ١٠٧ .

[٢٦] البحر المحيط ، ج ٨ ، ص ٢٥٠ .

[٢٧] ينظر. تفسير أبي السعود ، أبو السعود محمَّد بن مصطفى العمادي ، وضع حواشيه : عبد اللطيف عبد الرحمن ، ط ١، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٩ ، ج ٦ ، ص ٤٧٨ .

[٢٨] ينظر. البحر المحيط ، ج ٨ ، ص ٥٢٠ .

[٢٩] تفسير أبي السعود ، ج ٦ ، ص ٢٩١ .

[٣٠] ينظر. البحر المحيط ، أبو حيَّان الأندلسي ، مطابع النصر الحديثة ، المملكة العربيَّة السعوديَّة ، الرياض ، ج ٨ ، ص ٣١٧ .

[٣١] التفسير البنائي للقرآن الكريم ، ج ٥ ، ص ٧٨ .

[٣٢] ينظر. ألفاظ الحضارة في الشعر العربي في القرن الثاني الهجري – دراسة و معجم ، د. علي زوين ، المجمع الثقافي ، الإمارات العربيَّة المتَّحدة ٢٠٠٦ ، ج ١ ، ص ٤٥٠ .

[٣٣] ينظر. معجم القاموس المحيط ، مجد الدين محمَّد بن يعقوب الفيروز آبادي ، رتَّبه و وثَّقه : خليل مأمون شيحا ، ط ٤ ، دار المعرفة للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ٢٠٠٤ ، (سحر) ، ص ٥٩٧ .

[٣٤] ينظر. المعجم الاشتقاقي المؤصَّل لألفاظ القرآن الكريم ، د. محمَّد حسن حسن جبل ، ط ٢ ، مكتبة الآداب ، القاهرة ٢٠١٢ ، ج ٢ ، ص ٩٩١ .

[٣٥] ينظر. ألفاظ الحضارة في الشعر العربي في القرن الثاني الهجري – دراسة و معجم ، ج ١ ، ص ٤٥٠ .

[٣٦] ينظر. القاموس المقارن لألفاظ القرآن الكريم ، ص ٢٣٧ .

[٣٧] تفسير أبي السعود ، ج ٥ ، ص ٣٤٩ .

[٣٨] التفسير البنائي للقرآن الكريم ، ج ٤ ، ص ١٠٥ .

[٣٩] تفسير أبي السعود ، ج ٦ ، ص ٤٩ .

[٤٠] ينظر. مفردات ألفاظ القرآن ، (كهن) ، ص ٧٢٨ .

[٤١] ينظر. القاموس المقارن لألفاظ القرآن الكريم ، ص ٤٦٤ .

[٤٢] ينظر. معجم القاموس المحيط ، (كهن) ، ص ١١٥٣ .

[٤٣] ينظر. لسان العرب ، ابن منظور ، تصحيح : أمين محمَّد عبد الوهاب ، محمَّد الصادق العبيدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ٢٠١٠ ، (كهن) ، ج ٧ ، ص ٥٥٢ ، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل لألفاظ القرآن الكريم ، ج ٤ ، ص ١٩٨٤ .